إبراهيم مصطفى[1]

لم يكد الخالدون[2] الفانون يكفكفون دموعهم على فقد زميلين عزيزين هما المؤرخ شفيق غربال، والعالم إسماعيل مظهر، حتى عادت فتقاطرت على فقد زميل عزيز ثالث هو الأديب إبراهيم مصطفى. والأسرة المجمعية يحزنها أمض الحزن أن ترى المنايا السود يتخطفن أبناءها واحدًا بعد واحد في أزمان متقاربة وهي لا تملك لهم إلا عبرات تجف على حر الأسى، وذكريات تمحى على كر السنين.

نعم إن المجمعيين كالأنواء في السماء كلما سقط نجم منها في المغرب طلع بحياله نجم آخر في المشرق، فلا يزال العالم الأدبي منهم في ضوء مستمر وغيث متصل، ولكن غروب الغارب ينسي شروق الشارق ويسلم النفس إلى ليل من الحزن طويل موحش. والناس أمواج في خضم الحياة، تتولد من بعيد، ثم تتعاقب وتتدافع فترتفع وتنخفض، وتضطرب وتصطفق، وترغي وتزيد، حق تبلغ الساحل فتنكسر على صخوره أو تغيب في رماله ! ونحن الشيوخ نرى بأعيننا الكليلة صخور الشاطئ ورمال القفر على مدى قريب، فنجد في أنفسنا الرضا بحلول أصدق المواعيد لأنه العاقبة التي لا مفر منها والغاية التي لا معدى عنها. وسنة الله في خلقه أن يشيخ الشاب ويهيج الزرع ويجيء الأجل ويموت الحي، ولكن الإيمان بيقين الموت والاطمئنان إلى نهاية الحياة لم يستطيعا أن يحبسا في العين دمعة الحزن. ولا أن يخففا عن القلب لوعة الفراق.

والحزن على نوابغ الشيوخ هادئ ولكنه عميق، لأنه مبعثه فكرة والفكرة ولود. أما الحزن على نواضر الشباب فهو ثائر ولكنه ضحل، لأن مبعثه عاطفة والعاطفة عقيم.

الحزن على فقد الشاب لجميل حزن على زهر ذوي وزرع آف وأمل خاب وسند تحكم، ولكن الحزن على الشيخ العظيم حزن على ثروة ضخمة من العلم والخلق والمواهب والتجارب والمرانة، عمل في تكوينها مع الطبيعة الحرة والزمان الطويل

---

(1) نص الكلمة التي ألقيت في حفل التأبين الذي أقامه مجمع اللغة العربية بداره للفقيد في يوم 28 مارس من سنة 1962 .

(2) لقب يطلق على أعضاء مجمع اللغة العربية وأمثاله في كل بلد.

عوامل جمة وأحوال مختلفة حتى أصبحت قوة ي طاقة الإنسانية وقطعة من ثروة العالم، يحدث فقدها في سير الحياة من الخلل ما يحدثه فقد الضرس الصغير في الدولاب الكبير.

وإذا قال أبو تمام:

إن الفجيعة في الرياض تواضرا لأشد منها في الرياض ذوابلا

فقد صور الحزن العاطفي على جميل فقد، ولم يصور الحزن العقلي على نافع ذهب. إن في كل ساعة من ساعات الليل والنهار ألوفا من الأنفس تبتلعها القبور فلا يعقب فقدهم فراغا ولا دهشة، ولكن فقد عظيم واحد في العلم أو الأدب أو الفن أو السياسة أو الإصلاح يحدث في العالم من الخسران ما عبر عنه عبدة ابن الطبيب بقوله في قيس ابن عاصم:

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

* * * * *

لم يكن إبراهيم مصطفى علمًا على شخص وإنما كان علمًا على ثروة. كان ثروة ضخمة من علوم القرآن وفنون اللسان تجمعت بالحفظ والدرس والتحصيل والتمحيص والدأب والصبر والإيمان في خمس وسبعين سنة من يوم مولده إلى يوم وفاته.

نشأ الفقيد في بيت من بيوت القرآن، فقد كان أبوه رحمة الله قارئا لكتاب الله مقرئا إياه، فأخذه منذ الحداثة بحفظه وتجويد لفظه وقراءته على الأحرف السبعة التي أنزل عليها. ثم غرس في ذهنه البكر أصول العلوم. فحفظه الألفية في النحو والتلخيص في البلاغة والكنز في الفقه والشاطبية في القراءات. عرف ذلك منه لِدَتُه في العمر ورفيقه في الدرس المرحوم أحمد أمين حين تلاقيا أول مرة بأحد المساجد الكبرى في السنة الأولى من هذا القرن، وكانا مجاورين بالأزهر: أحمد في سن الخامسة عشرة، وإبراهيم يصغره بسنة. فعجم كل منهما عود صاحبه بسؤاله عما يحفظ وعما يعلم. فلما وقف أحمد أمين على مقدار تحصيله قال: فأكبرته واستصغرت نفسي. ومن ذلك الحين تصادفنا، وكان موطن الصداقة أول الأمر هذا المسجد لسعته وهدوئه. وكنا نجتمع

لمذاكرة الأدب نحفظ من مقامات بديع الزمان ومما نختار من رسائله، ونستظهر ما نختار من أمالي القدر، ونقرأ في بلوغ الأرب من أحوال العرب للألوسي، وأمثال الميداني، ولا مرشد يرشدنا إلى ما نقرأ وما لا نقرأ. ثم تفرقت بنا السبل وإن لم تتفرق صداقتنا. فاتجه إلى مدرسة اللغة والأدب والصرف والنحو وهي مدرسة دار العلوم. واتجهت إلى مدرسة الفقه والقانون وهي مدرسة القضاء الشرعي، ولكننا كنا نجتمع في الإجازات الصيفية فنتمم ما بدأناه من دراسة الأدب ".

من هذا الجذع الغليظ العميق من فنون العلم تفرعت في ذهن إبراهيم شجرة المعرفة. وبهذه الحصيلة الأولية القوية من مختلف المحفوظ دخل إبراهيم دار العلوم، فلم يكد يظفر لملكاته الموهوبة بالعلم الصالح والجو الملائم والمنهج المؤدى حتى نمت في ذهنه تلك البذور، وانشعبت من أصلها هذه الفروع، وأصبح إبراهيم بين أقرانه ورفاقه الغصن الذي يطول، للزهرة التي تعِد.

قال زميله وزميلنا الأستاذ زكي المهندس – مد الله في عمره –: " كان من حظي أن أزامل الفقيد في الدراسة خمس سنوات كوامل، يضمنا فصل واحد، وتجمعنا آمال مشتركة. وأشهد أنه أجودنا حفظا لمنون اللغة وفن التجويد وعلم القراءات، وأشدنا شغفا بالبحث في كتب النحو والصرف، وأكثرنا إلماما بنصوصها وشواهدها وشروحها وحواشيها. فما من مسألة لغوية عويصة عرض لها الأساتذة إلا كان له فيها جولة تم عنه اطلاع واسع وذكاء ملحوظ حتى دعاه أستاذنا لمرحوم سلطان محمد بسيبويه الصفير. ولقد ظهرت في الفقيد بواكير الحرية في التفكير والنزعة إلى التجديد في هذه الفترة من حياته، فلم يكن كغيره من الطلاب يسلم بما بقوله الأساتذة من غير نقاش ولا بحث، ومازالت أذكر نقاشا حادا جرى بينه وبين أستاذ الأدب المرحوم الشيخ علام سلامة حين قرر أن أمدح بيت قالته العرب قول جرير:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فقد فند هذا الرأي المأثور وأخذ يدلل على خطئه بأبيات من شعر حسان وغيره ".

* * * * *

وكذلك كان أمره مع سائر الأساتذة في قضايا النحو والصرف. ولعل صوت الطالب إبراهيم مصطفى كان أول صوت ارتفع في دار العلوم بالدعوة إلى تحقيق المأثور عن القدامى من هذه التعليلات الفاسدة والأقوال الخاطئة. وكان من أعز أمانيه وهو في دار العلوم أن يكون يوما مدرسا بها. وكانت الخطوة الأولى في سبيل هذه الغاية أن تبعثه الدار إلى انجلترا ليستفيد ويستزيد. وقد رشحته فعلا للبعثة، ولكن فشله في الفحص الطبي حال بينه وبين ما تمنى.

لم يرض لنفسه أن يكون هذا التخلف القهري عن الدراسة في الخارج سبيلا إلى تخلفه عن أنداده المبعوثين في العلم والمكانة.

وإنما رضي لها أن يكون حافزا ألهب طموحه إلى التفوق وأرهف عزمه على التكمل فأنف أن يسلك سبيل المتخرج العادي البادئ فلم يعمل في المدارس الأميرية وإنما عمل في مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية ليكون الأفق من أمامه أرحب، والأرض من تحت أقدامه أثبت، والحرية في تطبيق أحكامه أطلق، والمكافأة على جهوده أجزل، فكان معلما فناظرا فمفتشا، حتى إذا عاد أقرانه من انجلترا وجدوه في المنصب المرموق بالمرتب المضاعف. ثم سمت به كفايته إلى كرسي الأستاذية بكلية لآداب من جامعة القاهرة، فسطع فيها نجمه وتجلى بها نبوغه. تخصص في تدريس النحو فاستقصى أطرافه واستجلى غوامضه، وأولع بقراءة كتاب الحجة لأبي علي الفارسي في القراءات يستوعبه ويستوحيه ويجد في جلاء لما تخالج في صدره منذ صغره من اختلاف القراءات وتعدد اللهجات وتنوع العلل. فجره ذلك إلى النظر في فلسفة النحو وإصلاح ما أفسده النحاة المناطقة منه فبدأ بالعامل. والعامل كما تعلمون هو المحرك لسكون الكلمات ولا محرك غيره. فالاسم مثلا يرفع لعامل وينصب لعامل ويخفض لعامل ويجزم لعامل. فإذا لم يكن العامل ظاهراً قدروه، وإذا لم يكن موجودا أولوه. ولما سئلوا عن العامل في رفع المبتدأ قالوا إنه الابتداء، وعن العامل في رفع المضارع قالوا إنه التجرد من الناصب والجازم. فقيل لهم إن في جعل الابتداء عاملا في رفع المبتدأ تكلف لا يسيغه ذوق ولا يسوغه منطق، وإن تجرد المضارع من الناصب والجازم عدم والعدم لا يعمل، فردوا على ذلك بكلام لا غناء فيه ولا طائل من ورائه.

هدم الفقيد هذه القاعدة وأنكر أن يكون الرفع والنصب والجر أثر العامل وقرر أن العربي حين يرفع الاسم يلحظ فيه أنه مسند إليه أو مخبر عنه وأنه أساس الجملة. فإذا جره لحظ فيه الإضافة إما بأداة أو بغير أداة، أما إذا نصبه فلأن الفتحة هي الحركة المستحبة عند العرب يستخفونها إذا لم يدعهم داع إلى الرفع أو الجزم.

وعلى هذا الأساس بني نظريته في إعراب الاسم، وعلى هذه النظرية وضع كتابه (إحياء النحو).

ولم يجد هذا الرأي مساغا في عقول النحاة العصريين فردوه وفندوه، ولكنه كان صيحة فيهم لإصلاح هذا النحو وتيسيره لا يزال رجْعها يدّوي في دار العلوم والأزهر والمجمع اللغوي حتى اليوم.

مضى إبراهيم في جهاده اللغوي المرهق المثمر، يحاضر الطلاب ويوجه المعلمين ويعاونون في وضع الكتب، ويشارك في رسم المناهج، حتى تولى العمادة في دار العلوم فأعطاها أكثر مما أخذ منها، وأبلغها فوق ما بلغ بها. وفي سنة 1949 انتخب عضوا في مجمع اللغة العربية ليجلس على كرسي المرحوم علي الجارم فاستوي عليه استواء الند الكريم والخلف الصالح، واضطلع بأعبائه في لجنة الأصول وفي لجنة المعجم الوسيط وفي لجنة تيسير الإملاء وفي لجنة معجم ألفاظ القرآن فنهض بها نهوض الكفيِّ الضليع لا يتخفف منها لأنها رسالة حياته، ولا يتبرم بها لأنها حاجة نفسه. ولقد قال في خطبة استقباله بالمجمع: " لقد أمضيت سنوات في مسألة من النحو قيل إني رأيت فيها رأيا واتخذت في دربها نهجا. والآن أستبشر أني في ظل المجمع أستطيع أن أخطو خطوة ثانية، وأن أجد ما أحتاج من التسديد والإرشاد والعون ". وكانت هذه الخطوة الثانية أن تبنيَّ في المجمع المشروع الذي وضعه قواعده في لجنة تيسير النحو بوزارة التربية والتعليم وكانت مؤلفة منه ومن زملائه طه حسين وأحمد أمين وعلي الجارم فجادل عنه بالحجة، ودعا إليه بالحكمة، حتى أقره المجمع ومؤتمره.

وكان لهذا التيسير أثره في تعديل المنهج وتأليف الكتاب وتوجيه المعلم، فأخذته صيحة من النقد العاصف في القاهرة وفي دمشق، وكان وهو وليه ونصيره يومئذ يقاسي

دورًا من أدوار علته المزمنة، فلم يستطع رد الكيد عنه ولا صد الهجوم عليه، فقتل في القاعة التي ولد فيها من قاعات (دار العلوم).

ثم وجه همه إلى تيسير الكتابة العربية، وهي المشكلة الثانية من مشكلات اللغة بعد النحو، فكان له رأي في رسم الهمزة واقتراح في كتبة الألف اللينة واشتراك في اختصار حروف الطباعة. أما في لجنة المعجم الوسيط فقد عمل فيها على هدي ما تأصل في نفسه من هوى الإصلاح والتجديد. كان يبالغ في حذف المهجور من الألفاظ والتراكيب، وبغير من بعض المأثور من الأمثلة والتعاريف، ويرانا نقف في إثبات الجديد من الألفاظ عند قرارات المجمع وإجماع الناس وضرورة الحاجة، فيثبت هو إذا ما انفرد بالعمل في بعض الحروف، بعض الكلمات الخالصة في العجمة: كالبكس والتياترو والتايبريتر، وكان الكتاب قد ارتضوا من قبل ذلك الملاكمة والمسرح والآلة الكاتبة، ولكنها النزعة الطاغية التي استبدت بالفقيد في مجال التقريب بين الفصحى والعامية.

وفي لجنة معجم ألفاظ القرآن كان قطبا من أقطابها الذين يدور عليهم البحث ويرجع إليهم الحكم. وبحسبكم دليلا على مكانته منها وحسن بلائه فيها أن الشيخين الأكبرين إبراهيم حمروش، ومحمود شلتوت، وهما ما هما بين أعضاء هذه اللجنة، جاءاه يوما وهو جالس معي في قاعة المجلس يعتبان عليه أن ينقطع عن العمل معهم في المعجم لخلاف في الرأي لا يصعب الاتفاق فيه، ويرجوان منه في إلحاح أن يصل ما انقطع من مشاركته. كان إبراهيم يلقي المعاذير ويظهر التأبي، فقال لي الشيخ شلتوت عافاه الله: ما الحكم فيمن يهجر مجلس القرآن ويصر على الهجر؟ فقلت له مازحًا: يدخل في منطوق حكم الله الذي قضاه بقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 124] فأخذ الشيخان يدفعان بيديهما في صدره ويقرآن بقية الآية الكريمة ويرددانها وهو يستغيث بي ويقول أفتيتهما بقتلي وتضحك؟.

وحِرْص الفقيهين الكبيرين على بقائه معهما في لجنة المعجم القرآني شاهد على طول باعه في تفسير الكتاب وانفساح ذرعه في فقه مراميه، ولهاتين الفضيلتين من فضائله اختاره الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر عضواً في مجمع البحوث الإسلامية.

أما اختلافه معهما في النظر إلى حد الاعتزال فدليل على استقلاله في الرأي، واجتهاده في الفهم. والاستقلال والاجتهاد كانا من أخص صفات الفقيد، فقد كان له في كل مسألة رأي، وعلى كل رأي اعتراض، ومن هنا كانت حياته العامة كلها حياة تجديد ومعارضة.

* * * * *

سيداتي: سادتي ! كان إبراهيم مصطفى رجلا ظاهر الرجولية بارز الشخصية في كل رأي رآه وفي كل عمل تولاه، وكان مظهر رجولته ومبرز شخصيته في اعتداده برأيه، واعتزازه بنفسه، وامتيازه في علمه.

كان من أثر اعتداده برأيه إنعتاقه من عبودية النص وانطلاقه من إسار التقليد، فهو في الدين مجتهد، وفي اللغة متطور، وفي النحو متحرر.

كان على تبحره في النحو وتخصصه فيه وتعيشه عليه لا يتعصب له ولا يتزمت فيه، كان في لجنة وضع المناهج للمدارس الابتدائية والثانوية يصر على حذف بعض الأبواب والأعضاء يخالفونه في هذا الحذف.

وكان في لجنة المعجم الوسيط يسرف في إغفال بعض المواد والأعضاء يراجعونه في هذا الإغفال.

وكان في لجنة معجم ألفاظ القرآن يجتهد في فهم معنى اللفظ والأعضاء يعارضانه في هذا الاجتهاد.

وكان غالبًا ما يسفر الجدل بين التقيد والانطلاق عن رأي سليم يقف من المسألة عند حد الوسط.

على أن اعتداده برأيه كان يحمله أحيانا على أن يصطنع لهجة الأستاذية في خطاب بعض زملائه فيكدر ذلك من صفو المودة بينهم وبينه.

وكان من أثر اعتزازه بنفسه أن اعتراه ما يشبه الحساسية المرضية لكل ما يجافي شعوره أو ينافي كرامته. توثقت عري المودة بينه وبين سرى من أعيان السراة كان وليا على شئون الجمعية الخيرية الإسلامية حين كان هو موظفا بها، فأظله السرى بعطفه،

ورعاه بجاهه، وأزال الكلفة بينه وبينه. فما هو إلا أن بدرت من الرئيس المسلط كلمة تم عن سرواته أو رياسته حتى ملكته سورة العزة فانصرف عن مجلسه وصد عن لقائه، وكانت الخطوة لدى هذا الرئيس مطمح كل نفس ومطمع كل واصل. ولا أزال أذكر تلك القصة الرمزية التي شيع بها هذه الصداقة ونشرها في مجلة (السفور) بعنوان (وفاء كلب).

كذلك تأكدت بينه وبين الأستاذ أحمد أمين عقدة الحب فتساهما الإخاء منذ الصبا، وتقاسما الوفاء أكثر العمر، وخلط نفسه بنفسه حتى بلغ من حبه إياه أن سمى أحد ولديه باسميهما معا ليتحدا في اللسان لفظا كما اتحدا في القلب معنى: سماه أحمد أمين إبراهيم مصطفى. ولكن هذه المخالصة الشديدة لم تستطع أن تقاوم عزة نفسه حين حك في صدره شيء من تعالي صديقه، ولعل ذلك كان توهما منه ولدته الحساسية من اختلاف المنصب وذيوع الشهرة، ففتر الحب المضطرم، وفرع القلب المشغول، وجرى الأمر بين الرجلين مجرى الزمالة المألوفة والصداقة العادية.

ثم كان من أثر امتيازه في عمله أنه وصل ما انقطع من زعامة المصريين للنحو بعد ابن هشام وكانت هذه الزعامة قد انعقدت لمصر في القرنين السابع والثامن من الهجرة بمن نبغ فيها من أخلاف سيبويه كطاهر ابن بابشاذ، وابن الحاجب وابن منظور وابن هشام والدماميني والأشموني والصبان. ولكننا إذا استثنينا من هؤلاء جمال الدين هشام الذي قال ابن خلدون: إنه أنحى من سيبويه لنجد في الباقين من نظر في النحو نظرة إبراهيم مصطفى. نظر القدامى في النحو على أنه غاية لا وسيلة ونظر لا تطبق، جعلوا النحو للنحو كما جعل قوم الفن للفن، وعالجوه معالجة المنطقي الفيلسوف لا معالجة اللغوي الأديب، فوسعوا أبوابه وعددوا مذاهبه وشرحوا غوامضه ومحصوا حقائقه وفلسفوا علله، وبحثوا في كل شيء إلا في الموضوع الذي دار عليه والغرض الذي وضع من أجله. لم ينظروا فيه نظر الناقد المصلح الذي يرى المبهم فيوضحه والمعوج فيقيمه والمشوش فيرتبه، وإنما اتخذوا منه رياضة ذهنية ومتعة جدلية تتسابق فيها الإفهام بالتقديرات الغريبة والتعليلات الباطلة. إبراهيم وحده هو أول من تمرد على هذا المنهج القديم وحاول أن يجعل من النحو وسيلة مباشرة لإحسان الكلام والكتابة بأيسر جهد

وفي أقصر وقت. فقضى أكثر عمره يخطط هذا النحو على النحو الذي يريد، وإلى الوجه الذي يقصد. فإذا أعجله الموت عن تنفيذ ما أمل فإن الفكرة الطيبة كالبذرة الطيبة تتعهدها الطبيعة بالغذاء والري حتى تخرج بإذن ربها نامية باقية.

كان رحمه الله عمليًا يضع أمام عينيه الهدف الذي يعينه ثم يرميه من اقرب الجهات وأقصد السبل. فكر مرة أن يلغي النحو والصرف من مناهج التعليم الابتدائي والثانوي اكتفاء بتنشئة التلاميذ على النطق الفصيح والكتابة الصحيحة بالسليقة والمحاكاة كما كان يصنع العرب الأولون، فطلب من وزارة التربية والتعليم تخصيص لهذه التجربة فصلا من فصول المدرسة النموذجية وكانت تسمى يومئذ الفصول التجريبية، وظل يمارس هذه التجربة عاما بطوله، ولا أدري ماذا كانت النتيجة.

كان إبراهيم إذن من نحاة الطبع لا من نحاة الصنعة، وكان علمه بالأدب وأساليبه لا يقل عن علمه بالنحو ومذاهبه. كان من النحاة الأدباء كالمبرد والزمخشري وابن جنى، يكتب فيجيد، وينقد فيصيب، ويحاضر فيمتع. ولكنه أوتي اللسان الذلق والبديهة الحاضرة والقريحة الطيّعة فطغت فيه ملكة الخطابة على ملكة الكتابة.

ذلكم أيها السادة بعض الكلام في جانب من جوانب الرجل الذي فقدناه، وإن جوانبه الأخرى لأرحب وأخصب. وإذا جل الخطب بفقده اليوم فإنه سيكون غداً بافتقاده أجل؛ لأن الغني عن مثله عسير، والعوض عن كفايته أعسر. واللغة العربية في محنتها الحاضرة يوهي من دفاعها ومنعتها أن تصاب في أبنائها الأحرار الأبرار الذين وقفوا جهودهم عليها، واستنزفوا أعمارهم فيها، وكانوا لها وزار في الشدائد وجُنة.

أخانا إبراهيم !

إن إخوانك لا يزالون بعد أربعين يوما من انصرافك إلى جوار ربك يغالبون الجزع عليك ويراودون العزاء عنك، ولكن كرسيك الذي لن يشغل في المجمع، ومكانك لذي لن يحتل في المجتمع، وجهادك الذي لن يعوض في الأدب، يجعل الصبر على مصابك أمراً لا يدرك إلا بالزمن الطويل.

أخي إبراهيم !

دخلنا المجمع معا في يوم واحد وخرجت منه قبلي. والباب الذي خرجت منه مفتوح أبداً، لا يضيق ولا ينغلق. إنه الباب الوحيد الذي فتحه الله على حدود الدنيا ليجتازه كل حي إلى حيث يفنى كالبهيم، أو إلى حيث يبقى كالملك وأنت يا إبراهيم في الحياتين خالد: خالد في دنيا الناس بالذكر الحسن، وخالد في جنة الله بالعمل الصالح.

إن من بكاك فسوف يُبكي؛ وإن من رثاك فعما قريب يُرثى:

لا يُلبث القرناءَ أن يتفرقوا ... ليل يكر عليهمُ ونهار

فاذهب كما ذهبت غوادي مزنة ... أثنى عليها السهل والأوعار

وسلام الله عليك يوم فقدناك.

وسلام الله عليك يوم نلقاك.